الإمام الأعظم
أبو حنيفة النعمان

أ.د. حمزة النشرتى

الشيخ/ عبد الحفيظ فرغلى أ.د عبد الحميد مصطفى

رقم الإيداع
١٩٩٤/١١٦١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

« إلى روح الأئمة المجتهدين ، الذين طلعوا فى آفاق الأمة الإسلامية شموسا مشرقة ، وتركوا من بعدهم ذخيرة فقهية رائعة ، أخذت بأيدى الناس إلى طريق الهدى والنور ، ووضعت لهم المنهج الصحيح فى تعبدهم ومعاملاتهم ومعالجة قضاياهم ، من وحى القرآن الكريم ، والسنة الشريفة الصحيحة ، والرأى الناضج الحكيم .. نقدم كتاب أئمة الفقه الإسلامى ، بادئين بالإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ...»

قال تعالى ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾

التوبة:١٢٢

قال ﷺ « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده »

الجامع الصغير عن ابن مسعود .

« الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة »

الإمام الشافعى .

رأيت أبا حنيفة حين يؤتى ... ويطلب علمه بحرا غزيرا

إذا ما المشكلات تدافعتها ... رجال العلم كان بها بصيرا

عبد الله بن المبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فقد أرسل الله سيدنا محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ، وأنزل معه كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى سبيل الرشاد ، ويحول بينهم وبين الزيغ والفساد .

وقد أدى النبى ﷺ الرسالة ، وأبلغ الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وترك الناس على محجة بيضاء ..

وكان القرآن الكريم حينما ينزل ، يتلوه النبى ﷺ على أصحابه ، ويأمر بكتابته ، ثم يبين لهم المقصود مما نزل ، قال تعالى ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾

وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يسمعون ما يقوله النبى ﷺ من أحاديث، ويحفظون ذلك على تفاوت بينهم ، فمنهم المكثر ، ومنهم المقل ، وكما يتفاوتون فى الحفظ كانوا يتفاوتون كذلك فى الفهم .

ثم تقدم الزمن ، وبعد أن لحق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى تفرق الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فى الأمصار ، فاتحين ومعمرين ومقيمين ، وجدت قضايا كثيرة فى المجتمعات الجديدة التى حلوا بها ، نتيجة للاختلاط القوى ، واختلاف التقاليد والعادات والقوانين المتوارثة .

وأخذ العلماء يفكرون فى الأحكام التى تواجه هذه القضايا الجديدة ، فمنها ما كان يوجد له نص فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومنها ما لايوجد له نص ، فكانوا يجتهدون بآرائهم ، ومن هنا نشأ الاجتهاد فى الإسلام .

وقد أقر النبى ﷺ مبدأ الاجتهاد قبل وفاته ، فقد أرسل معاذ بن جبل ـ رضى

الله عنه ـ قاضيا إلى اليمن ، وسأله النبى ﷺ قائلا له : **يا معاذ ، بماذا تقضى ؟**

فأجاب معاذ : بكتاب الله تعالى ،

فقال النبى ﷺ : **فإن لم تجد ؟**

قال : فبسنة رسول الله ﷺ .

قال النبى ﷺ : **فإن لم تجد .**

قال معاذ : أجتهد رأيى ، ولا آلو ـ أى لا أقصر .

فضرب النبى ﷺ على صدر معاذ ، وأثنى عليه وقال : **الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى ما يحبه الله ورسوله** (١)

فهذا حديث صحيح فى جواز الاجتهاد عندما لا يوجد نص من القرآن الكريم أو سنة رسول الله ﷺ .

مضت الأيام وتشعبت أطراف الأمة الإسلامية ، وتفرق أصحاب رسول الله ﷺ ، فى البلدان ينشرون العلم ، ويبثون حديث رسول لله ﷺ وورث منهم التابعون هذا العلم ، وأصبح هؤلاء التابعون متصدرين للناس يفتونهم فيما يحتاجون إليه ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى الاجتهاد نظرا لمقتضيات الأمور وظهور أحداث وقضايا لم تكن موجودة من قبل .

واشتهر من هؤلاء بعض الأئمة فى مختلف الأمصار والأقطار من أمثال سعيد ابن المسيب وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد فى المدينة وعطاء بن أبى رباح فى مكة ، وطاووس بن كيسان فى اليمن ، وعلقمة بن قيس النخعى وشريح بن الحارث القاضى فى الكوفة ، والحسن بن أبى الحسن البصرى ومحمد ابن سيرين فى البصرة ، وعبد الرحمن بن جبير ، ومكحول ، وعمر بن عبد العزيز فى الشام ، ويزيد بن حبيب فى مصر .. وغيرهم .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى .

وكان لكل من هؤلاء المفتين آراء واجتهادات اشتهروا بها تبلورت فيما بعد على يد الأئمة الأربعة المجتهدين فى أربعة مذاهب هى المذهب الحنفى وإمامه أبو حنيفة النعمان بن ثابت فى الكوفة ، والمذهب المالكى وإمامه مالك بن أنس فى المدينة المنورة ، والمذهب الشافعى وإمامه محمد بن إدريس الشافعى فى مصر ، والمذهب الحنبلى وإمامه أحمد بن حنبل فى بغداد .

وكانت هناك مذاهب لفرق أخرى كالخوارج والشيعة والإباضية وغيرها ، ولكنها اندثرت ، أو أصبحت قاصرة على يد أتباعها لا تتعداهم إلى غيرهم .

وأصبح المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يتعبدون فى ظل أحد هذه المذاهب الأربعة التى اعتمدها المجتمع الإسلامى ، وأقبل عليها الناس لموافقتها لصريح الكتاب والسنة ، والرأى الصائب السليم ، وخلوها من التعصب والجمود والهوى .

ولئن ظهرت اجتهادات أخرى بعد عصور هؤلاء الأئمة الأربعة ، فإنما هى فى فلك ما ذهب إليه هؤلاء ، لم يستطع أصحاب هذه الاجتهادات الاستقلال بأنفسهم ، ولم يستطيعوا الوقوف فى تيار هذه المذاهب التى أحبها المسلمون ، وتجاوبوا معها ، كما أنهم لم ينالوا من شخصيات هؤلاء الأعلام الذين قدموا للفقه الإسلامى ذخيرة حية باقية متجددة ، تمد المسلمين بكل ما يحتاجون إليه من أحكام حول قضاياهم وأمورهم الحادثة .

ولقد حاول ابن حزم مثلا ـ وهو من أئمة الظاهرية ـ أن ينال من شخصية هؤلاء الأعلام ، وخرج على المذهب الشافعى الذى كان يتمذهب به ، ولم يكتف بذلك بل هاجمه وهاجم بقية أصحاب المذاهب ، ولكنه لم ينجح فى ذلك ، بل قوبل بالنكير والمعارضة . قال ابن خلدون فى مقدمته : « درس مذهب أهل الظاهر بدروس أئمته وإنكار الجمهور على منتحله ، ولم يبق إلا الكتب المجلدة ، وربما يعكف كثير من الطالبين ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب ،

يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم ، فلا يخلو بطائل ، ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه ، وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين ، وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس ـ على علو رتبته فى حفظ الحديث وصار إلى مذهب أهل الظاهر ، ومهر فيه باجتهاد زعمه فى أقوالهم ، وخالف إمامهم داود ـ الظاهرى ـ وتعرض للكثير من الأئمة المسلمين، فنقم الناس ذلك عليه ، وأوسعوا مذهبه استهجانا وإنكارا ، وتلقوا كتبه بالإغفال والترك ، حتى إنه ليُحْظَر بيعها فى الأسواق ، وربما تُمزّقُ فى بعض الأحيان»(١)

لقد انتشرت هذه المذاهب الأربعة فى بقاع الأرض ، فشاع مذهب أبى حنيفة فى العراق وفارس والهند وبخارى ومصر والشام وغيرها ، وكذلك شاعت المذاهب الأخرى فى بلاد كثيرة سنتحدث عنها فيما بعد ، وأول من أدخل المذهب الحنفى إلى مصر القاضى الحنفى إسماعيل بن اليسع الكوفى ، عندما تولى قضاء مصر من قبل الخليفة المهدى العباسى سنة أربع وستين ومائة من الهجرة.

وازداد انتشاره بعد أن تولى أبو يوسف ـ تلميذ أبى حنيفة منصب قاضى القضاة فى الدولة العباسية ، لم يكن يولى قاضيا إلا إذا كان على مذهبه ـ فاضطر النا س إلى معرفة هذا المذهب وتعلمه والإقبال عليه . ومازال المذهب الحنفى منتشرا فى مصر ، وهو مذهب القضاء المعمول به فى محاكمنا ، يشير إلى ذلك ما يشاهده الناس حين يدعون إلى حفل قران ، ويقول المأذون فى عقده : هذا على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان .

وهذا لا يعنى أنه هو المذهب الغالب فى مصر ، فإن كثيرا من الناس يتعبدون على مذهب الإمام الشافعى ، وكثيرا منهم يتعبدون على مذهب الإمام مالك ، وبعضهم يتعبدون على مذهب الإمام أحمد بن حنبل .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٧ .

وهذه المذاهب جميعها تدرس فى الأزهر الشريف ، وكانت لها أروقة قبل أن ينشأ نظام مدينة البحوث الإسلامية ، ويوقف على طلابها الأوقاف .

وكانت تقام بمصر بجانب الأزهر مدارس كثيرة برسم تدريس المذاهب الأربعة ، مثل المدرسة الناصرية التى أنشئت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة لتدريس المذهب الشافعى .

وقبلها المدرسة القمحية التى أنشئت عام ستة وستين وخمسين لتدريس المذهب المالكى ، وكانت من أجل المدارس لفقهاء المالكية .

ومدرسة ابن رشيق وكانت للمالكية أيضا .

والمدرسة الفاضلية وكانت للشافعية والمالكية معا .

والمدرسة السيوفية وكانت لتدريس المذهب الحنفى وأنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبى لهذا الغرض ، وولى رئاستها أحد رءوس الأحناف فى مصر وهو الشيخ مجد الدين محمد بن محمد بن الجبتى .

والمدرسة الأزكشية ، وأنشأها مملوك أسد الدين شيركوه ، وهو الأمير سيف الدين « آيازكوج » الأسدى ووقفها على الأحناف .

والمدرسة العاشورية نسبة إلى عاشوراء زوجة الأمير السابق ، ووقفتها على الأحناف أيضا .

والمدرسة الفارقانية وكانت للأحناف والشافعية .

والمدرسة الصالحية وكانت للمذاهب الأربعة .

والمدرسة الظاهرية وكانت للمذاهب الأربعة .

والمدرسة المنصورية وكانت للمذاهب الأربعة (١) ..

---

(١) راجع الخطط المقريزية المعروف بكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٣/ ٣١٣ ـ ٣٨٣ .

وغير ذلك من المدارس .

وهذا يعنى عناية المصريين ذكورهم وإناثهم بدراسة الفقه والإقبال عليه وتشجيع الطلاب على تعلم العلم والتفقه فى الدين ، وهذا جزء من حضارة مصر العريقة التى تقوم على أساس العلم والمعرفة .

وقد رزق الله تعالى ـ الأئمة الأربعة بركة فى الأتباع وكثرة فى الأشياع ، فليس هناك صقع من أصقاع الأمة الإسلامية يخلو من متعبد على أحد هذه المذاهب ، وقد رزقهم الله هذه البركة بسبب إخلاصهم لربهم وغيرتهم على دينهم، ووفائهم للعلم ، وتمسكهم بالأخلاق الفاضلة ، والمثل العليا ، التى يأتى فى مقدمتها الاعتراف بالفضل لأصحابه ، ولقد كان كل من هؤلاء الأئمة يثنى على من كان قبله ، ويتأدب معه ، وهذه هى ميزة أهل العلم الخالص الذين يقدرون العلم حق قدره .

ورد أن أبا حنيفة التقى بالإمام مالك فى المدينة فأثنى كل منهما على صاحبه، وفى أثناء إقامة أبى حنيفة فى المدينة كان يتعبد على مذهب الإمام مالك ، وكان الإمام الشافعى تلميذا وفيا للإمام مالك ، بل اعتبره الإمام مالك كأحد أبنائه ، وشاطره ماله مرارا ، وحين توجه الإمام الشافعى إلى العراق كان يتعبد على مذهب الإمام أبى حنيفة احتراما له وتأدبا معه .

وكان الإمام أحمد لا يكف عن الثناء على الإمام الشافعى ، ويدعو له دائما حتى لقد سأله ابنه عبد الله يوما قائلا له : رأيتك تكثر من الدعاء للشافعى فأى رجل كان هذا ؟

فأجابه أبوه : يا بنى ، لقد كان الشافعى كالشمس للدنيا ، وكالعافية للبدن ، فانظر هل لهذين من عوض أو عنهما غنى ؟

لقد أصبح الفقه رأس العلوم الشرعية ، فيه يعرف المسلم كيف يتعبد لربه على أساس صالح سليم ، وهذا هو الذى يصل بالعبد إلى باب مولاه ، وبذلك أمرنا الله